المقدمة الغزلية للمدحة النبوية الأندلسية

الدكتورة فيروز الموسى
جامعة البعث
حمص – سورية

تمهيد:

لقد كثر انتشار المقدمة الغزلية في صدور المدائح في الشعر العربي "فقد افتتح الشعراء الجاهليون، قصائد كثيرة بالمقدمة الغزلية، وتتألف هذه المقدمة من الحديث عن صد المحبوبة وهجرها، أو بعدها وانفصالها وما يخلفه البعد والهجر والفراق من تعلق شديد وشوق مستبد، ودموع غزار يسكبها الشاعر حسرة وألماً ولهفة، وسرعان ما تفد على خاطره أيامه الماضية السعيدة، وذكرياته الحلوة الجميلة، حين كان يلتقي بمحبوبته ويبوح كل منهما لصاحبه بحبه، وتبادله إعجاباً بإعجاب، وشوقاً بشوق، حتى إذا ما انتهى من ذلك مضى يصف محاسنها ومفاتن جسدها، وهو وصف التفتوا فيه إلى المحاسن الجسدية، أكثر من التفاتهم للمحاسن المعنوية.."(١).

وقد شاعت المقدمة الغزلية كما رسمها شعراء الجاهلية في صدور المدائح الأندلسية، وقد اقتفى فيها الشعراء العرب في الأندلس آثار أسلافهم غالباً.

المقدمة الغزلية للمدحة النبوية

تعد المقدمة الغزلية من المقدمات الواسعة الانتشار في صدور المدائح

---

(١) مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي، حسين عطوان، دار المعارف بمصر ١٩٧٤م. ص(١٢٨).

النبوية الأندلسية، إلا أن الغزل الذي تصدر قصيدة المدائح النبوية قد اكتسب ميزات خاصة، فلم يعد النسيب فيه يقصد لذاته حتى يتحدث الشاعر عن هواه، وإنما هو نسيب وقع موقع التمهيد لقصيدة دينية، ولولا حرص الشاعر على متابعة افتتاح القصائد بالنسيب، لما كان للتغزل في مثل هذه القصيدة مكان. "فالغزل الذي يصدّر به المديح النبوي يتعين على الناظم أن يحتشم فيه ويتأدب، ويتضاءل، ويتشبب مطرباً بذكر سلع ورامة، وسفع العقيق، والعذيب والفوير ولعلع وأكناف حاجر، ويطرح ذكر محاسن المرأة، والتغزل في ثقل الردف، ودقة الخصر، وبياض الساق، وحمرة الخد، وخضرة العذار، وما أشبه ذلك"[٢].

ولعل مقدمة قصيدة أبي القاسم بن أبي[٣] ذكريا نموذج من المقدمات الغزلية التي تفيض بعواطف الصوفية المغرقة في الرمز إلى حب الرسول، والتغني بصفاته.

وفي تلك المقدمة، يبث الشاعر أحزان إنسان شفه الوجد، وأضناه البعاد، فيشكو إلى الليل أحزانه، ويذرف الدمع بغزارة ويقول:

أصغي إلى الوجدِ لمّا جدَّ عاتبه	صبٌّ له شغل عمن يعاتبُهُ
لم يعط للصبرِ من بعد الفراق يداً	فضلَ مَنْ ظلّ إرشاداً يخاطبُهُ
لولا النّوى لم يبت حرّان مكتئباً	يغالبُ الوجدَ كتماً وهو غالبُهُ
يستودعُ الليل أسرار الغرامِ وما	تمليه أشجانُهُ فالدمعُ كاتبُهُ[٤]

ومما يميز هذه المقدمة، أن الشاعر يستجمع منها عدداً من مقومات المقدمة

---

(٢) المدائح النبوية، زكي مبارك ...ص (٣٦).

(٣) أبو القاسم بن ذكريا البرجي، هو محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن علي بن إبراهيم البرجي، يكنى أبا القاسم، من أهل غرناطة.

(٤) نفح الطيب، للمقري تحقيق محيي الدين عبدالحميد، القاهرة ١٩٤٩. (٦ – ٧٠)

الغزلية التقليدية، يسترجع ذكريات الماضي مناجياً أحبته، ويذكر ربوع الحمى، ولكن الشاعر لا يقصد الغرض المعروف من الغزل التقليدي، وإنما وضع مقدمته في سياق يجعلها مناسبة كصدر لمدحة نبوية، يتجلى ذلك من خلال حنينه إلى أماكن الصلاة وذرف الدموع الغزيرة على أحبة قد يكون ذكرهم وسيلة للربط بينه وبين المدح النبوي لما في ذلك من إشارات دينية:

لله عصرٌ بشرقيِّ الحِمَى سمحتْ … بالوصلِ أوقاتُهُ لو عَادَ ذاهِبُهُ
ويا أُهيلَ ودادي والنوى قذفٌ … والقربُ قد أَبهتْ دوني مذاهِبُهُ
ويا ربوعَ الحمى لازلتِ ناعمةً … يبكي عهودك مضنى الجسمِ شاحبُهُ(٥)

ويجسد الشاعر أيضاً بعض مقومات المقدمة الغزلية عندما يصف الرحلة عبر صحراء رمضاء وهو يعاني من الحر والعطش، ويقاسي المسافات البعيدة. ولا شك في أن هذه الرحلة تختلف بما تحمله من معان سامية عن الرحلة التقليدية إلى الممدوح عندما يكون ملكاً أو خليفة أو زعيماً، فهنا يتحمل الشاعر كل ما في الرحلة من متاعب في سبيل الوصول إلى أماكن المقدسات التي يدل عليها تحببه لمدينة طيبة، ولعل هذا التحبب يبعد المقدمة عن دائرة المقدمة التقليدية ليدخلها إلى صومعة المتصوفين، ويوشحها بوشاح الرمز.

شَدّوا على لهبِ الرمضاءِ وطأتَهُم … فغاصَ في لجةِ الظلماءِ راسبُهُ
وكلفوا الليلَ من طولِ السرى شططاً … فخلّفوهُ وقد شابتْ ذوائبُهُ
فيها وفي طيبة الغراءِ لي أملٌ … يصاحبُ القلبَ منهُ ما يصاحبُهُ
شوقي إليها وإن شطَّ المزارُ بها … شوق المقيمِ وقد سارتْ حبائبُهُ
إن ردّها الدهرُ يوماً بعدما عبثتْ … في الشملِ منّا يداه لا نعاتبُهُ

---

(٥) نفسه (٦ – ٧٠)

معاهد شرفــت بــالمصطفى فلَـها		من فضلِه شــرفٌ تعلــو مراتبُــهُ(٦)

ثم ينتقل إلى المدح انتقالاً موفقاً، فقد ربط بين حنينه إلــى تلــك الديــار، وتحببه لأهلها، وبين حبه للنبي الممدوح، ثم يتابع قصيدته مستكملاً المدح النبوي الذي يختمه بمدح الخليفة مشيراً إلى أبرز الأحداث السياسية آنذاك، وبذلك يكون الشاعر قد استطاع أن يكسب قصيدة المدح قيمة تاريخية إذ وظفها لتكون ســجلاً سياسياً بالإضافة إلى قيمتها الدينية.

وقد استهل عبدالعزيز بن علي قصيدةً في مدح النبي، بمقدمة غزلية عــبر فيها عن نظرته إلى الحب الصادق الذي يكتمه الإنسان حتى لا يستطيع كتمانــه عندما يتأثر بكل جوارحه وأعضائــه، ووضع بعض أسس الحب التــي يسـير عليها المحبون كالتملق والتمويه والكتمان والصبر:

القلــبُ يعشــقُ والمدامــعُ تنطِــقُ		برح الخَفاء فكــلُ عضــوٍ منطــقُ
إن كنتُ أكتمُ ما أكنّ مــنَ الجَـوى		فشحوبُ لونيَ في الغــرامِ مصــدقُ
وتدللــي عنــد اللقــا وتملقِــي		أن المحــبَّ إذا دنــا يتملــقُ
فلكم سترتُ عــن الوجـودُ محبتــي		والدمعُ يفضحُ مــا يســرُ المنطــقُ
ولكــمْ أمــوهُ بــالطلولِ وبِــالكنى		وأخوضُ بحرَ الكتمِ وهو الأليــقُ(٧)

ولا يخفى ما في هذه الأبيات من إشارات وإيماءات تدل على أن الشــاعر مهد بها لتكون مقدمة مناسبة لمدحة نبوية، ولم يذكرها متغزلاً بفتاة علــى عــادة الشعراء في افتتاح قصائدهم المدحية، وقد تجلى ذلك في بعض الملامح الرمزية والصوفية التي تغلغلت بين كلمات القصيــدة مجســدة بعــض آراء المتصوفــة

(٦) نفسه (٦ - ٧٢).
(٧) نفسه (٦ - ١١٥).

ومعتقداتهم حول كنه رسول الله وستر وجوده، وقربه من الله والبشر.

ظَهرَ الحبيبُ فلستُ أبصـــرُ غـيرَهُ فبكــلِ مرئـــي أرى يتحقـــقُ
مـا فـي الوجـودِ تكـثرُ لمكـــثرٍ إنّ المكــثرَ بالأبـــاطيلِ يعلـــقُ
يا سائلي عَنْ بعــضِ كنــهِ صفاتِـه كلّ اللسانُ وكـــلّ عنـــهُ المنطـــقُ[٨]

وتتجلى براعة الشاعر في تلك المحاكمة العقلية التي أوردها عندما أراد أن يخلص إلى مدح الرسول بقوله:

وأخلص إذا شئتَ الوصولَ ولا تنــل فالفجرُ عن طلبِ المعـــارف موبــقُ
دعْ رتبَـــة التقليـــدِ عنــك ولا تتــــه تلقَ الـــذي قيـــدتَ وهــو المطلــقُ
جرِّد حسام النفسِ عن جفنِ الــــهَوى إنّ العوائــــدَ بــــالتجردِ تخـــرقُ
بـــالذوقِ لا بـــالعلمِ يـــدرك علمنـــا ســـر بمكنــون الكتـــاب مصــــدقُ
وبما أتى عن خيرِ من وطئ الـــثرى ســـر الوجـــود وغيثـــه المتدفـــقُ[٩]

وبهذا استطاع الشاعر أن يمهد لغرضه بمقدمة غزلية فيها عمق الإحساس وصدق العاطفة، وكأنه يرمز بغزله، إلى حبه لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتعمقه في تعاليم الإسلام، وقد تأكد ذلك من خلال الترابط النفسي والعاطفي بين المقدمة والأبيات التي أحسن التخلص فيها ليصلَ إلى مدح النبي الكريم.

وقد افتتح لسان الدين بن الخطيب بعض مدائحه النبوية بمقدمات غزليـــة تفيض بعواطف الحب والشوق إلى رؤية المحبوب، وقد صور فيها الشاعر مـــا يعـــانيه من وجد وسقام. وهذه المقدمات لوحات فنية مناســـبة لقصيـــدة المـــدح النبوي لما فيها من عمق نفسي، وبعد عاطفي جعلها أقرب إلى الحب أو الغـــزل

---

(٨) نفسه من (٦- ١١٥).
(٩) نفسه (٦-١١٦).

الرمزي لتكون وثيقة الصلة بالعواطف الدينية النابعة من حب الرسول (صلى الله عليه وسلم) مما يجعلها تختلف اختلافاً واضحاً عن الغزل التقليدي، كقول لسان الدين في فاتحة إحدى مدائحه:

ما على القلبِ بعدكم من جُناح ... أن يرى طَائراً بغيرِ جناحِ
وعلى الشوقِ أن يشبَ إذا هبَّ ... بأنفاسِكم نسيمُ الصباحِ
جيرةُ الحي والحديث شجون ... والليالي تلينُ بعدَ الجماحِ[١٠]

وتغلب على هذه اللوحات مشاهد التصوير الذاتي، إذ يعكس الشاعر صورة نفسه المعذبة، وما يعانيه من ألم الفراق والوجد، ويغلف لوحته بوشاح من عواطف الصوفية يتجلى بوضوح من خلال قوله:

يا ترى والنفوسُ أسرى الأماني ... ما لها عن وثاقها من براحِ
هلْ يُباح الورود بعد ذياد ... أو يتاحُ اللقاءُ بعد انتزاحِ
وإذا أعوزَ الجسوم التلاقي ... نابَ عنه تعارفُ الأرواحِ[١١]

ويبرز الشاعر في هذه المقدمة عنصر الرحلة التي هي رحلة شوق صوفي، فالشاعر يعبر عن شوقه إلى الرسول من خلال تصويره للرحلة عبر الفيافي ليصل إلى مهد رسول الله ويكحل عينيه بمرأى مثواه:

وركاب سروا وقد شملَ الليل ... بمسحِ الدُجى جميع النواحي
خلّفوني من بعدهم ناكسَ الطرف ... ثقيلَ الخُطا مهيضاً جناحي
وطووا طوع لاعجِ الشوقِ والوجدِ ... إلى الأبطحي عبرَ البطاحِ

(١٠) الصيب والجهام والماضي والكهام، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق محمد الشريف قاهر، الجزائر ١٩٧٣م. ص(٣٨٨).
(١١) نفسه (٣٩٠)

مصطفى الكون من ظهور النبيئيـــن هـــداة الأنـــام سـبل الفـــــــلاح[١٢]

وقد استطاع الشاعر أن يرسم صورة للمقدمة الغزلية في قصيـــدة المـــدح النبوي، ووفر لها كثيرا من المقومات التي تضفي على لوحته الكمال، وقد ربـــط بين مشاهدها بخيوط متينة من العواطف الجياشة. وقد تجلت الرمزية بوضــــوح في كثير من المقدمات الغزلية، ففي افتتاحية قصيدة للسان الدين في مدح النبـــي الكريم يكني باسم سلمى عن حبه لرسول الله، ثم يصور ألمه وحزنه لبعده عنـــها وأثر الصد والحرمان على نفسه، ويشير إلى تعلقه الشديد بها، فما من شيء فـــي الدنيـــا يستطيع أن يفرق بينه وبينها ولعل هذا التملق من الرموز التي يهدف إليها الشاعر ليدل على حبه للرسول الكريم:

سل ما لسلمى بنار الـــهجر تكوينـــي وحبها في الحشى من قبـــل تكوينـــي
وفي مناهـــا تمنيـــت المنـــى فغـــدا قلبـــي كئيبـــا ببلـــــواه ينـــاجيني
وفي قبـــاب قبـــا قـــامت لنـــا بقبـــا طرازها مذهب في حسن تزييـــن[١٣]

ويزيد الشاعر لوحته جمالا باستكمال أكثر عناصر المقدمـــة الغزليـــة، إذ يعرج على ديار الأحبة، وهذا التعريج الرمزي من شاعر أندلسي، يتجلى في ذكر الأماكن الحجازية كي تكون خاتمة المطاف إلقاء التحية على الرسول الكريم:

يا صاح عج بالحمى وانزل بهم سحرا وانظـــر لعجـــب أثيـــلات البســـاتين
وفوق سفح عقيق الدمع عج لـــــترى جاذر الحـــــي بيـــن الخـــرد العيـــن
ومل على أثـــــلات البـــان منعطفـــا وحي سلعا وسل عن حـــال مســـكين
ثم آت جزعا وجز عن حي كاظمـــة واقرا السلام علـــــى خـــير النبييـــن

---

(١٢) نفسه (٣٩١)

(١٣) أزهار الرياض، للمقري تحقيق مصطفى السقا، القاهرة ١٩٣٩م. ص (١:٣١٧)

محمد المصطفى المختار من ظهرت   آياتُـه فتسـلّى كـلُ محـزونِ(١٤)

وبذلك فقد استطاع الشاعر أن يمهد لقصيدته بمقدمة تتصل بالقصيدة اتصالاً روحياً، وما زيارة الأماكن إلا ليسهل الانتقال إلى المدح.

وبذلك حذا الكاتب أبو يحيى بن خلدون حذو ابن الخطيب في قصيدة نبوية مطلعها:

مَا عَلى الصَّبِ في الهوى من جناحِ   أن يرى حلف عبرة وافتضاحِ

وفي هذا المطلع يبدو حنين الشاعر لأحبائه، ويأسه لبعدهم عنه، ويدعو بالسقيا لديارهم ويتذكر ماضيه فيها من خلال ذكر أسماء بعض الأماكن التي لذكرها أثر خاص في توظيف هذه المقدمة، والتمهيد بها لتكون ملائمة لقصيدة نبوية، ولها دلالاتها ومميزاتها كارتباط تلك الأمكنة بمشاعر مقدسة في النفوس البشرية:

وإذا ما المُحِبَّ عيلَ اصطباراً   كيفَ يصغي إلى نصيحة لاحِ
يسارعى الله بالمحصبِ ربعاً   آذنت عهدَهُ النّوى بانتزاحِ
كم أدرنا كأسَ الهوى فيه فرحاً   رُب جد من الجَوى في المزاحِ(١٥)

ولعل من الظواهر المميزة للمطلع الغزلي الذي يمهد للمدحة النبوية بعده عن الصفات الحسية، وتصويره للنفوس الحزينة، وما أضفاه عليها الفراق والبعد

(١٤) نفسه (١:٣١٧)
(١٥) نفح الطيب (٦:٥١٠).

من ألم ووجد، وتمتاز تلك المطالع أيضاً بالدموع الفياضة التي لا يجد الشاعر حرجاً في الإفصاح عنها:

نسألُ الدار بالخليطِ ونسقي ... ذلك الربع بالدموع السّفاحِ
فاسألوا البرقَ عن خفوق فؤادي ... والصبا عن سقامِ جسمي المتاحِ
يا أهيل الحمى نداه مشوق ... ماله عن هوى الدمى من براحِ
طالما استعذب المدامع وردا ... في هَواكم عن كلِّ عَذبٍ قراحِ(١٦)

ويظهر المعنى الرمزي لهذه المقدمة عندما يعرض الشاعر صورة لهوه في الماضي محاولاً أن يجسد توبته عن ذلك الماضي معلناً التوبة والاستغفار والندم على ما فات، معلناً أن التكفير عن ذنوبه السابقة لا يكون إلا بمدحه الرسول والتوسل له:

أي مسرى حمدت لم أخلُ منه ... بسوى حسرةٍ وطولِ افتضاحِ
واخساري يوم القيامة إن لم ... يغفر الله زلتي واجتراحي
لم أقدم وسيلة فيه إلا ... حُبَّ خيرِ الورى الشفيعِ الماحي(١٧)

ويلاحظ كيف استطاع الشاعر أن يربط ربطاً موفقاً بين المقدمة والمدح مستعيناً بالعواطف والوسائل النفسية، فكان ربطه شكلياً ومعنوياً حسناً.

أما ابن جابر الأندلسي ، فيبدأ إحدى نبوياته بمقدمة غزلية تقليدية بطلب المرور على بعض الأماكن الحجازية، وإلقاء التحية على الديار وبثها ما تثيره ذكراها في نفسه من شجون، ويذكر اسم فتاته ويشير إلى حبه لها وتعلقه بحماها،

---

(١٦) نفسه (٦:٥١٠).

(١٧) نفسه (٦:٥١٢)

إشارة رمزية تدل على تعلقه بالمواطن التي سكنها أو حل فيها أو زارها الرسول، وقد ظهر ذلك في إلحاحه على ذكر أسماء تلك المواطن التي تحمل معاني مقدسة:

بطيبة انزلْ يمم سيدَ الأمم   وانشرْ له المَدح وانثرْ أطيبَ الكَلِم
وابذل دموعَك واعزل كلَّ مصطبر   والحقْ بمن سارَ والحظْ ما على العلمِ[١٨]

وقد ربط الشاعر بين المقدمة الغزلية وغرض المدح بذكر الأماكن التي تحمل المعاني المقدسة وكذلك بلجوئه إلى كنف الرحمن تاركاً أيام التغزل وليالي التصابي، منتقلاً إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليشفع له لمغفرة ذنوبه وخطاياه. كما لجأ لسان الدين بن الخطيب معلناً أن لا فائدة من استرجاع الذكريات، والأجدر بالإنسان أن يلوذ بكنف الرحمن فبذكراه تطيب النفوس:

مالي وتذكار الصبّابة والصبا   ومواثقاً عندَ الهوى وعهودا
وصباح شيب الفود لاحَ بمفرقي   فغدوتُ من فقد الصبا مفؤودا
وتذكرت عهداً بمنعرجِ اللوى   لا يستحيلُ وموثَقاً مشهودا[١٩]

ومن مقومات المقدمة الغزلية في صدر المدحة النبوية تذكر أطلال الأحبة والتغزل بديار المحبوبة التي ترمز إلى الديار المقدسة. فالشاعر الأندلسي الذي عاش مغترباً، وقف على أرض المغرب البعيد رامياً بنظره إلى أرض الأباء والجدود، إلى أرض المشرق العربي، مستعيداً ذكراه بتلك البقاع، ومردداً بأسلوب تقليدي مشاهد الوقوف الطللي، فإن كان شعراء الجاهلية يقفون

---

(١٨) الحلة السيرا في مدح خير الورى، ابن جابر الأندلسي، تحقيق علي أبو زيد.
(١٩) الصيب والجهام (٤٨٤)

ويستوقفون فإن عبدالله بن لسان الدين يستحلف الركب أن يقفــوا علــى أطــلال الديار التي اضطر إلى الرحيل عنها، ويعبر عن حنينه لتلك المعاهد، ولذلك فهو يلح على صاحبه أن يعرج عليها لعله يشفي بمرآها قلبه العليل، ثم يدعــو لــهذه الديار بالسقيا ولا يخفى أن الدعاء بالسقيا تقليد جاهلي:

بحــق الــهوى يــاحُداةَ الحمــــول | قفوهــا قليــلاً بتلــــك الطلــــولِ
معــاهدُ مــرت عليــها الســـــحابُ | بــبرقٍ خفــوقٍ ودَمْـــعٍ همـــولِ
أحــن إليـــــها حنيـــن اليشـــار | وأبكــي عليــها بشجــو طويــــلِ
فيا ســـعدُ عَــرّج عليــها الركــاب | ففيــها لقلبــي شفــاءُ العليــــلِ[٢٠]

ومن الملاحظ أن أطلال الشاعر الأندلسي منازل حية ملأى بالناس وتسير فيها الحياة سيراً طبيعياً، إلا أن الشاعر اضطر مرغماً إلى البعاد عنها وحنينـــه دائماً إليها، ولذلك فهو يصور حالته النفسية ويعكس أحزانه لأنه لا يســـتطيع أن يعيش في تلك الديار ويأمل أن ينعم بزيارتها:

وممــا شجــاني وميـضٌ خفــــوقٌ | كقلبــي غــداة النــوى والرحيــــلِ
ودمــع يســاجل دمــــع الغمــــام | وشجــو الحمــائم عنــد الــــهديلِ
فيا ليت شعري وهــــل مــن ســبيلِ | ويــا طيــب مــأوى بظــلٍ ظليــلِ
وهل يســـمحُ الدهــرُ بعــد العنــادِ | بجــبرِ الكســيرِ وعـــزّ الذليـــلِ
وهــل راجــع عــهدنا بــــالحمى | على رغم دهــرٍ ظلــومٍ جــهولِ[٢١]

وتكتسب هذه المقدمة قيمة كبرى من خلال دلالاتها على المعاني الدينيـــة

---

(٢٠) نفح الطيب (٧: ٢٩٠)
(٢١) نفسه (٧: ٢٩١)

الكبرى التي تجسدها عندما يذكر الشاعر أسماء الأماكن الحجازية المقدسة، فالشاعر صاغ هذه المقدمة لتكون تمهيداً للمديح النبوي، ولذلك فقد وشاها ببعض المعاني الدينية التي كان يرددها الصوفيون:

وفي ذمة الله ركب سروا	يجدون والليلُ مرخى السدول
نشاوى بكأسين كأس الهوى	وكأس من الأمن مثل الشمول
يؤمون بالعيس أم القرى	وقبر النبي الشفيع الرسول(٢٢)

وقد اكتسبت المقدمة الغزلية عمقها من خلال قدرة الشاعر على توفير أكثر مقومات هذه المقدمة. ومن أبرز المشاهد في تلك اللوحة الفنية مشهد تصوير النفس البشرية التي تفيض بمشاعر الحب والحنين الصوفي الصادق، وهي تعاني من لوعة الشوق، وتكابد آلام البعد عن مثوى الحبيب الهادي، ولكن بوارق الأمل التي يمني الصوفية نفوسهم بها، ما تنفك تبرق فتضيء النفوس، وينعكس هذا البريق في الشعر مسجلاً لوحات فنية لها مقوماتها البارزة.

فقد افتتح ابن عربي بعض مدائحه بمقدمات تعبر عن تتالي أحزان المحب، حتى أن شجو الحمام يثير أشجانه، وهو يرمز بذلك إلى معان لايود أن يفصح عنها ، وهي تضطرب في مكنون أفكاره إلا عندما يتمنى أن يزور بعض الأماكن الحجازية، علّه يطوف بالكعبة الشريفة كما طاف رسول الله (صلى الله عليه وسلم):

ألا يا جمامات الأرائل والبان	ترفقن لا تضعفن بالشجو أشجاني
ترفقن لا تسهرن بالنوح والبكا	خفيَّ صباباتي ومكنون أشجاني
أطارحها عند الأصيل وبالضحى	بجنةِ مشتاقٍ وأنَّةِ هيمان

(٢٢) نفسه (٧:٢٩١)

تناوحت الأرواح في غيضةِ الصبـــا   فمـــالتْ بأفنـــانٍ علــــيَّ فأفنــــاني
فمنْ لي والمحصب من منـى ومـــن   لي بذاتِ الأثــلِ مـــن لـــي بنعمـــانِ
تطوفُ بقلبـي ســاعةً بعــد ســاعةٍ   لوجـدٍ وتـــبريحٍ وتلثيـــم وأركـــاني
كما طافَ خير الرمل بالكعبةِ التـــي   يقولُ دليلُ العقل فيـــها بنقصـــانِ(٢٣)

فالشاعر استطاع من خلال الرمز أن يمهد للمدح النبوي تمـــهيداً أحســـن الانتقال منه إلى المدح عندما انتقل إلى ذكر الأماكن والطواف بالكعبة، وما هـــذا الإفصاح عن خفايا النفس البشرية المغتربة، وما تتمنى أن تحققــه. ممـــا ســبق نستطيع أن نقول إن المقدمة الغزلية التي تتصدر بعض القصائد النبوية اكتســـت ثوباً جديداً مختلفاً عن ثوب الغزل في مقدمات قصائد المدح التقليدي، فقد تخففت المقدمة الغزلية في صدور الدائح النبوية من الأوصاف الحسية التي غصت بـــها المقدمات التقليدية، بالإضافة إلى غلبة روح الحنين والشوق إلى أماكن التغزل لما لها من معان دلالية وكذلك فقد توشحت هذه المقدمات بالمعاني الرمزية الصوفية التي أخرجتها عن دائرة التقليد الحرفي، وأدخلتها في نطاق الرمـــز والتجديـــد. وكذلك فإن عنصر الرحلة من عناصر المقدمة الغزلية، ولكن الرحلة في مقدمـــة القصيدة النبوية، تحمل معاني سامية فهي رحلة تعـــبر عـــن الســـمو الفكـــري والأخلاقي ولا تقصد الكسب من ممدوح ملك أو خليفة أو زعيم، وبذلـــك فـــإن المقدمة الغزلية للمدائح النبوية قد صيغت صياغة مناسبة لتكون صـــدراً ملائمـــاً لجسد متماسك.

---

(٢٣) ترجمان الأشواق، لابن عربي، دار صادر، بيروت ١٩٦١.

المصادر والمراجع

١. أزهار الرياض - المقري أحمد، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة ١٩٣٩م.

٢. ترجمان الأشواق-محيي الدين بن عربي، دار صادر، بيروت ١٩٦١م.

٣. الحلة السيرا في مدح خير الورى - ابن جابر الأندلسي، تحقيق علي أبو زيد. بيروت ط١، ١٩٨٥م.

٤. الصيب والجهام والماضي والكهام - لسان الدين بن الخطيب، تحقيق محمد الشريف قاهر، الجزائر ١٩٧٣م.

٥. المدائح النبوية - زكي مبارك، مطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر ١٩٣٥م

٦. مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي - حسين عطوان، دار المعارف القاهرة ١٩٧٤م.

٧. نفح الطيب (١-١٠) المقري أحمد، تحقيق محيي الدين عبدالحميد، القاهرة ١٩٤٩م.